عمي بوشناق

قصص تأليف عبدالرحمن الفاسي

(الرباط ـ وزارة الثقافة ، ١٣٨ صفحة)

قبل سنتين دار نقاش في احد اروقة جامعة ميتشغان في آن اربر في الولايات المتحدة الاميركيـة حول الادب العربـي المعاصر . فسالت البروفسور تروفور لكاسك Le Gassick المتخصص في تدريس القصة العربيـة في تلك الجامعـة ، سائلـه : ـ « بم تعلـل عدم استحسان القارىء الغربي للقصة العربيـة على الرغم من انكم قد ترجمتم افضـل اقاصيصنـا ورواياتنـا التي حظي باعجاب القراء العرب ترجمةسليمة وباسلوب رفيع ؟ أهـو اختلاف في الذوق بيـن قرائنـا وقرائكم ، ام هو تباين فـي المقاييس التي نحكمها في جودة العمل القصصي ؟ » .

فارتسمت على وجهه ابتسامة استشففت منهـا انه مقدم علىالتخلي عـن التلميح والايماء اللذيـن يتصف بهمـا الانكليز من امثاله ، وانـه سيجيب بـلا مداراة ولا مجاملة . وتاكـد لـي صواب حدسي حين قال: ـ « بالاضافـة الى مـا ذكرت ، فانني اعتقـد بأن السبب الاكثر اهمية هـو ان القاص العربي لمـا يوفق بعـد في استخدام الرمز في اعماله الادبية . وانت تعلم ان نجاح القصـة يتوقف الى حد بعيـد علـى مطاوعتهـا للقراءة على اكثر من مستوى واحد ، بحيث تسمح للقارىء الناضج بقراءتيـن على الاقل، احداهما سطحيـة للمتعة ، والاخـرى تحليلية لدراسـة صنعـة الكاتب من حيث البنية ، والاسلوب ،والفكرة التـي تكمـن وراء التأثيرات البلاغيـة التي يستخدمها . وتتيح له هذه القـراءة فرصة الغـوص في رؤى الكاتب ليكتشف فيه فنانا ،او عالم نفس اجتماعيـا ، او فيلسوفا ، او شاعرا . اما القارىء المتمرس او النافـد فيستطيع ان يجمع بيـن قراءة المتعـة والقراءة التحليلية فـي خبرة جماليـة واحدة . وهذا مـا تفتقـر اليه القصـة العربية .صحيح ان هنالـك محاولات في هذا المضمـار قام بهـا بعض الكتاب الشباب، ولكـن صبغـة التقليـد لما يجري في الاداب الغربيـة طاغيـة عليها ، كما ان مضامين اعمالهم لم تسلم من تأثير الانثروبولوجيا الغربية . »

ثم ابتسم بلطف وقال بصيغـة التعجيز :

ـ« اعطني قصة عربيـة واحدة تستمد حوادثهـا من بيئتكم ،وتمتاز بسلاسة الاسلوب القصصي ، وتستخدم الرمز بوعي ودقة بحيث تحتمل تفسيرا جديـا يشغـل الفكـر اضافـة الى المعنى الروائي الظاهر الذي يسلـي العيـن » .

وصمت وفي قلبي سؤال وابتهال : رباه الم تكفنـا مئة سنة مـن التجربة القصصية لبلـوغ ذلك الشاو الذي اشـار اليه البروفسور لكـاسك ؟!

واثناء اقامتي الطيبة في المغرب ، اتيحت لـي فرصة قراءة اعمال الاستاذ عبدالرحمن الفاسي ومن بينهـا اقصوصة « عمي بوشناق »التي ما ان انتهيت من قراءتهـا حتى الفيتني ارسلهـا بالبريـد الـى البرفسـور لكاسـك .

عمي بوشناق هو قهوجي السوق ومؤذن المسجد في مدينة فـاس القديمة . شيخ وقور بلحيته البيضاء ، وعمامته الحمراء ، وقفطانه الاخضر ، وسرواله الاسـود ،و « قشابته » ذات الصوف الاحمر . اتخذ سقايـة الشارع مقرا لـه . وكانت تساعده في اعداد القهوة ابنتـه الصغيرة « عويشة » التي كانت تغافل اباها الشيخ احيانا فتضع يدها على قطعـة من السكـر تقضمهـا قضمـا . وكانت تمتاز بخشونة وصلابة يخشاها بسببهمـا جميع اطفال الحي . ومر ردح من الزمن اختفت بعده عويشة من السوق ، فقد صارت من ربات الخدور . امـا عميبوشناق فلم يختف يومـا عن الانظار ، ولم يتغيب ساعـة عن الشارع ، فهـو رهيـن السقايـة لا يبرحهـا الا ليقوم بدورته الرتيبة يوزع كؤوس القهوة والشاي على اصحاب الدكاكين المتراصـة على جانبي الطريق ، وما كانت سنه العاليـة لتقـل من نشاطه او تقعـد به عن القيـام بمهنته ، فهـو دائم الحركة ، دائم النشاط ، يعـد القهوة والشاي تارة ، ويفـرغ الكؤوس ويجففهـا اخرى ، وطورا يكنس ما حوله من الارض ثم ينضحه بالماء ، حتى اذا خدر النهار ، واستعرت الهاجرة ، انتصب الشيخ وسط الشـارع وصاح بصوته الاجش : « الصلاة على النبي » ، فتدوي في الشارع على امتداده همهمة ترجيـع التصليـة ، ثم حركـة وقـع الاقدام تنسل من حافات الدكاكين الى مسجـد « جامع الزليـج » .

وكان الشيخ رجل بركة وخير ، يفعم قلبه الرضى ، لولا انالدنيا صارت غيـر الدنيا ، والارض تبدلت غير الارض ،والناس انقلبت غير الناس . واخذ الشيخ يتبرم بالنساء متبرجات متهاديات فـي جلابيب الرجال ، واقبال الشباب على شرب الدخـان وقص الشعر . وغـدا ثائرا يصب اللعنـات على بائع ومبتاع « العشبة الخبيثة » ويكفـر مدخنها . وكـان انتشار حوانيت الدخـان بشوارع فاس ، ونمو حركة شراء السجايـر وانتشارها بيـن الكبير والصغير صدمة له تلقاهـا بهدوء ، ولكنه هدوء المتالم المفجوع .ومع تصرم الشهور « اصبح الشيـخ منطويا على نفسه هامدا خامدا ، واصبحت نورته اطراقا طويلا وسهوما متواصلا ، ثم اختفى فجـاة فلم يعرف احد عن امره شيئا ..

« وذات يوم ، شاهد اهل الحي شيخا ضامرا فانيـا ، معروفا مرهونا ، قد استند الى سقايـة الشارع ، تارة يمد ذراعيـه مقلصا اصابعه كمـن يحتال للقبض على شيء ، وتارة يهوّم بيديه في الفضـاء كمـن يتوعد احدا ، وبين يديه كومة كبيرة من اعقاب السجاير ،يدس واحدا منهـا اثر آخر بين شفتيه ، ثم يظل الشيخ يهرف ويهذي، فلا يتبيـن الناس منه غير هذه الكلمـات :

ايه ... « عويشة » تشرب الدخان ؟ .. زمان ! .. »

لقد نشرت هذه القصـة لاول مرة في جريدة (الوداد) المغربيـة في ابريل سنـة ١٩٤١ ، ونقلتهـا مجلة (الثريا) التونسية بعدد مارس ١٩٤٦ ، ثم ظهرت عام ١٩٧٢ في مجموعـة قصصية للاستاذ الفاسيتحمل عنوان « عمي بوشناق » في سلسلة « القلم » التي تصدرهـا وزارة الثقافـة المغربيـة . وارى ان لكل مرة نشرت فيهـا هذه الاقصوصـة دلالـة ومغزى . فظهورهـا سنـة ١٩٤١ يحملنـا على الاعجاب بالمؤلف واكباره ، فعلى الرغم من انه لم يكـن يتجاوز الثانية والعشريـن منعمره آنذاك استطاع ان يحيط باسرار الفن القصصي شكـلا واسلوبـا ومضمونا . فقـد حقق الفنيـة الشكليـة كمـا تعارف عليهـا النقـاد يومذاك ، فكانت « عمي بوشناق » قصـة متكاملـة من حيث احتواؤها على المقدمـة والعقدة والحل . ويمتـاز اسلوبه بالاناقـة الفنية التي « تعتمـد على اختيار اللفظـة وتنسيق الجملة والفقرة ، فهـو مـن كتاب القرن الرابع (الهجري) المجيدين في القرن العشريـن ، وهـو ياسرك باسلوبه البديع اكثر مما يأسرك بخياله او تصويره ، كما قال عنه

الاستاذ عبد الكريم غلاب (١) . ولعل في الفقرات التي اقتبسها من قصة « عمي بوشناق » مثلا على جزالة الاسلوب ودقة تصوير الشخصيات. واما المضمون ، وهو مدار بحثنا اليوم ، فيكفي المؤلف فخرا انه تصدى قبل اكثر من ثلاثين عاما لمعضلة يعانيها المجتمع العربي حاليا ، واخذ مفكرونا مؤخرا يولونها اهتماما بالغا لدرجة ان عالم الاجتماع العراقي الدكتور علي الوردي كرّس معظم مؤلفاته وابحاثه لدراستها ، تلك هي مشكلة « الازدواجية » .

وتشير اعادة نشر قصة « عمي بوشناق » في تونس الى ان ظاهرة « الازدواجية » لم تكن مقتصرة على المغرب فحسب ، بل تمتد الى الكثير من المجتمعات النامية التي خضعت للاستعمار الغربي سياسيا او اقتصاديا او فكريا .

واما قيام وزارة الثقافة المغربية مؤخرا باصدار مجموعة قصصية بعنوان « عمي بوشناق » للاستاذ عبدالرحمن الفاسي على الرغم من انقطاعه منذ زمن ليس بالقصير عن كتابة القصة لانصرافه الى النقد الادبي والابحاث التاريخية والسياسية ، ولانشغاله في السلك الدبلوماسي حيث عمل سفيرا لبلاده في الاردن والسودان وسوريا والعراق ، اقول ان قيام وزارة الثقافة ـ ممثلة في الاستاذ محمد الصباغ مدير مصلحة الاداب فيها ـ بنشر « عمي بوشناق » ينمعن رغبتها في تكريم رواد الادب القصصي في المغرب ، اذ يعد عبدالرحمن الفاسي ، وعبدالكريم غلاب ، وعبدالمجيد بن جلون ، وعبد الخالق الطريس ، وعلال الجامعي ، واحمد بناني ، وعبدالله ابراهيم من ابرز هؤلاء الرواد الذين لهم الفضل في تطوير الفن القصصي في المغرب. وناحية اخرى استهدفتها وزارة الثقافة من اصدار « عمي بوشناق » هي اعطاء مثال للقصة الرصينة الهادفة بعد ان شاعت « موضة » اقاصيص اللامعقول والعبث التي يصعب على القارىء استساغتها والتي لا تسهم بزخم كبير في معركة البناء .

وتستمد قصة « عمي بوشناق » اهميتها من اتجاهها ولغتها وبنائها . فمن حيث الاتجاه ، يمكن اعتبارها نقطة تحول في تاريخ الفن القصصي في المغرب وتطوره . اذ انها كتبت ونشرت في فترة سادت فيها القصة الوعظية والقصة التاريخية (٢) . وكان بعض القصاصين المغاربة قد انتهجوا النزعة الوعظية في كتاباتهم آنذاك بوازع ديني او دافع اخلاقي . ويمكن ان نمثل لهذا الاتجاه بقصة « عجائب الاقدار او عواقب الاصرار » لمصطفى الغرباوي التي كتبت سنة ١٩٣٨ . وانتهج البعض الآخر القصة التاريخية التي تقدم صورا من بطولات العرب والمسلمين عبر تاريخهم الزاخر بالاحداث الجسام ، وذلك في محاولة من هؤلاء الكتاب لتوليد شحنة نضالية وبعث الثقة بالنفس لدى ابناء المغرب . ويمكن التمثيل لهذا النوع من القصص بقصة (تأسيس) لعلال الجامعي ، وقصة (عذراء المرية) لعبدالله ابراهيم اللتين صدرتا عام ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على التوالي . ولم يكن المغرب المسرح الوحيد للقصة التاريخية في تلك الفترة ، بل نجد كتاب المشرق ايضا يسلكون الاتجاه ذاته ، فقصص نجيب محفوظ الثلاث (عبث الاقدار) و (رادوبيس) و (كفاح طيبة) التي ظهرت في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٨ و ١٩٤٤ هي قصص تاريخية . وفي تلك الاثناء تبزغ « عمي بوشناق » نجمة فريدة في سماء القصة المغربية تهبها بعدا جديدا وتوجهها الى حيث يجب ان تكون ، الى الجبهة المقاتلة ، الى الواقعية الاجتماعية . وتطلب هذا التحول تغييرا جذريا في لغة القصة وموضوعاتها . فتخلصت « عمي بوشناق » من اللهجة الخطابية ، والاسلوب التقريري ، والفقرات التوجيهية التي كان ينثرها الكتاب هنا وهناك مقاطعين بها سير الحدث القصصي . كما انها ، من ناحية اخرى ، لم تقع ضحية الفهم الخاطىء للواقعية الذي ادى الى استخدام اللهجة العامية في الاعمال الادبية . فقد كان الفاسي يدرك معنى الواقعية الفنية ادراكا عميقا جنبه التورط في استعمال العامية في الوصف او الحوار ، في وقت وجد غيره من رواد الواقعية الاجتماعية في العالم العربي انفسهم وجها لوجه مع مشكلة الثنائية اللغوية في مجتمعنا حيث توجد لغة فصحى تستخدم للاغراض الكتابية وفي الاحاديث ذات الطابع الرسمي ، ولغة عامية دارجة يستخدمها الناس في اتصالاتهم اليومية العادية . وعز على الكتاب الواقعيين ان ينطقوا اشخاصهم الشعبيين بلغة فصحى نحوية. ورأوا في ذلك تناقضا مع الواقعية التي ينتهجونها . وعانى المشكلة عبد الملك النوري وغائب طعمة فرمان في العراق ويوسف السباعي وغيره في مصر . ورأى هؤلاء الكتاب ان على القصة الواقعية ان تكون امينة في تصوير الواقع الاجتماعي بما في ذلك ثنائيته اللغوية . وهكذا كان تحليل القاص للاحداث والشخصيات ووصفه للزمان والمكان يصاغان باسلوب فصيح ، اما الحوار بين شخصيات القصة انفسهم فكان بلهجتهم العامية الدارجة (٣) . وساد هذا الاتجاه في القصة الواقعية العربية فترة طويلة من الزمن حتى انبرت اصوات تصحح الوضع (٤) . فاعلن محمد مندور في عام ١٩٥٩ ان «... المؤلف لا ينطق لسان مقال شخصياته الروائية بل ينطق لسان حالهم ، والواقعية ليست في اللغة وانما في التصوير النفسي للشخصيات ومدى مطابقة هذا التصوير لواقع الحياة الظاهر منه والخفي، والذي تستطيع الشخصيات التعبير عنه او لا تستطيع . والذي يحدث فعلا هو ان المؤلف يعبر بلغته هو وبلسانه ، وكل ما يطلب منه هو ان يأتي تعبيره صادق التصوير لواقع شخصياته . وسيان في ذلك ـ من الناحية الفنية ـ ان يستخدم لغة عربية فصيحة او عامية او اية لغة اخرى » (٥) . وايد نجيب محفوظ ذلك عام ١٩٦٠ بقوله :

« ليست الواقعية صورة لما يقع ، ولكن صورة لما يحتمل وقوعه. والواقع يتغير في الواقعية . ولها معادلة هي : الواقعية = الواقع + الفن . فالشخص في الحياة ليس حرفيا في الرواية . وكذلك الحادث والمكان والزمان . » (٦)

---

(١) عبد الكريم غلاب ، « تطور الادب القصصي في المغرب العربي . » في المحاضرات الثقافية الاسبوعية ، الجزء الاول ، ص ١٣٦ (الرباط : وزارة الثقافة ، ١٩٦٩) .

(٢) احمد اليابوري ، « تطور الفن القصصي في المغرب ، ٣ : القصة الوعظية والقصة التاريخية » في مجلة الباحث ، المجلد الثاني (١٩٧٢) ص ٢٦٩ ـ ٢٨٥ .

(٣) وغالى بعض الكتاب في ذلك حتى امست قصصهم اقليمية لا تفهم في غير البلد الذي كتبت فيه . ولعل اقاصيص غائب طعمة فرمان في مجموعته « عمي عبرني » خير مثال على ما نقول ، فعلى الرغم من جودتها الفنية فهي لا تقرأ ولا تفهم الا في العراق .

(٤) انظر زكي عبد الملك ، « الاسلوب القصصي بين العامية والفصحى » في مجلة فكر وفن ، عدد ١٨ (١٩٧١) ص ٤٦ ـ ٥٠ .

(٥) محمد مندور ، المسرح النثري (القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٩) ص ٧١ .

(٦) فاروق شوشة ، « مع الادباء » في مجلة الاداب يونيو (١٩٦٠ ص ١٩ .)

واخذ القصاصون يتخلون بالتدريج عن فكرة استخدام العامية في الحوار القصصي، رغم ان البعض ما زال يتمسك بها مثل القاصين التونسيين بشير خريف ومحمد رشاد الحمزاوي . اما الاستاذ عبد الرحمن الفاسي فانه فهم الواقعية باطارها الصحيح ، ولهذا فانت تقرأ مجموعة « عمي بوشناق » باكملها ولا تعثر على كلمة عامية واحدة ، بل على العكس تعجب بلغة المؤلف الفصيحة التي تجمع بين المتانة والسلاسة والوضوح .

وقراءتي التحليلية لقصة « عمي بوشناق » تقنعني بما لا يقبل الشك بان موضوعها يعالج مشكلة الازدواجية في المجتمع المغربي . ويعرف المفكر المغربي الاستاذ محمد بن البشير الازدواج بانه « اتباع طريقين مختلفين في آن واحد ، فهو في اللغة والثقافة مسايرة لغتين وثقافتين بصفة موازية . ومما لا ريب فيه ان هذا النوع من الازدواج كثيرا ما يخلق ازدواجا في العقلية والتفكير . » (٧)

وكانت الازدواجية في المجتمع المغربي قد ظهرت نتيجة للاستعمار والاستيطان الفرنسيين اللذين استهدفا نشر الثقافة الفرنسية طبقا لخطة مدروسة . وكانت المدرسة واللغة وسيلتين رئيسيتين في تحقيق ذلك الهدف . وادرك المفكرون المغاربة النتائج الوخيمة لتلك الازدواجية الثقافية على صعيد الفرد والمجتمع والوطن . وفي هذا يقول الاستاذ ابن البشير :

« ولتباين الثقافتين العربية والفرنسية ، وتباعد المعيشة والعوائد والاراء بين اصحاب الثقافتين لا نجد الا نادرا شخصا اندمجت فيه العقليتان والثقافتان فاصبح حصيلة موحدة منسجمة تمثل نوعا متزنا صالحا من المواطنين . الحقيقة اذن ان الازدواج في الثقافة يخلق شخصا متارجحا ، اختلت وحدانيته في الاتجاه والتفكير . » (٨)

(٧) محمد بن البشير ، « الازدواج والتخلف الثقافي » في مجلة الثقافة المغربية ، الجزء السادس (١٩٧٢) ص ١٣١ .
(٨) المصدر السابق .

ولعل القارىء يتساءل عن معنى التارجح في الشخصية واختلال الوحدانية في التفكير اللذين اشار اليهما الاستاذ ابن البشير ، فاسمح لنفسي بان اضرب مثالا على ذلك في فتاة نشأت في اسرة دينية وتلقت تعليمها في المدارس الاجنبية في احدى البلاد العربية . ولقد رايتها ذات مساء تريح رأسها على صدر والدها الشيخ طالبة منه ان يتلو لها بعض الادعية والتعاويذ لتبرأ من صداع الم بها . ولقد شعرت فعلا بارتياح اتجهت على اثره الى مرقص ليلي لتمضي السهرة فيه واخذت تتحدث هناك عن علاقاتها قبل الزواج بوصفها صداقات عابرة وذكريات طيبة . وفي الصباح كانت تخاطب امها بالعربية بينما كانت تكتب رسالة بالانكليزية الى اخيها الذي يدرس في الولايات المتحدة .

ان « عمي بوشناق » محاولة فنية جيدة لتصوير اخطار الازدواجية التي ذكرنا . ولقد وفق الفاسي في اختيار المكان والزمان والشخصيات والاحداث . فلم يختر فاس لانها مسقط رأسه ولان معرفته بدروبها وانا سها تحقق له الصدق الفني فحسب ، بل لانها عاصمة المغرب الروحية ايضا . وتعد جامعة القرويين بفاس من اجل مراكز الحضارة العربية الاسلامية . وفاس معروفة بمحافظتها على تقاليد تلك الحضارة واعرافها . ومن هنا فان اي صراع حضاري سيكون على اشده في مدينة كهذه . لكل هذا اختار المؤلف فاس لترمز الى المغرب برمته . واضفى الكاتب صبغة دينية على بطله « عمي بوشناق » فهو لم يكن قهوجي السوق فحسب بل مؤذن الجامع كذلك . وهكذا يستطيع ان يرمز به الى الشعب المغربي الذي طبعته الثقافة الاسلامية بطابعها المميز . اما التنافس بين الدخان والقهوة فهو صراع بين قيم الحضارة الفرنسية الغازية والحضارة العربية الاسلامية المغزوة . واذا كان بعض ابناء الجيل الجديد (عويشة) ينساق وراء المظاهر الخلابة للحضارة الغازية ويتقبلها ، فان لهذا اثره الخطر على الشعب المغربي الذي قد يفقد وحدانيته في الاتجاه والتفكير (وقد رمز الكاتب الى ذلك الخطر بما اصاب عمي بوشناق الذي اختلت قواه العقلية في نهاية القصة) .

علي القاسمي

قالوا عن كتاب

حُبّ

تاليف غادة السمان

بعيدا عن الثرثرة الرومنطقية ، والرسائل التقليدية ، تشارف غادة السمان ، بحساسية الانثى وموهبة الفنان في لحظات حميمة ، عالم الشعر تاركة على جدار القلب الانساني آثار بصماتها ....
عصام محفوظ ـ جريدة النهار

« حب » ، هو حكاية مسيرة طويلة عرفت كيف تتجاوز نفسها دائما .
جورج الراسي ـ مجلة البلاغ

سنبقى نتلهف الى مرثيات غاده السمان الحميمة، الماضية والمقبلة .
ظافر تميم ـ لسان الحال

لا تكتفي غاده السمان بالتعبير عن الانسياق المطلق مع نوازع الجسد بل تحاول التبشير بما يمكن ان نسميه بعبادة الجنس !
رشيد ياسين ـ المحرر

اذا كان الشعر يسكن اعمق اشياء الحياة (الموت، الالم ، الحب ، التضحية) فان غاده السمان الكاتبة والقاصة ، هي شاعرة قبل كل شيء !..
نهاد سلامة ـ الصفاء

الحب الذي تحكي عنه غاده السمان أساسه الحرية ، وكردة فعل عن كل كتب حب المرأة العربية من الف سنة ، أرادت غاده السمان ان تحب عنهن جميعا .
هدى الحسيني ـ الانوار

تذهب غاده دوما الى اعماق الاشياء ، وتستطيع ان تكون غنائية ، او ساخرة كما تستطيع ان تستحضر برقة الحب الطفولي ، وأن تصرح بالحقيقة بجرأة واخلاص .
ايرين موصللي ـ الاوريان لوجور

منشورات دار الآداب